خلود العربية وعالميتها كلغة للقرآن

للأستاذ بهاء الدين الأمير.
(الرباط)

العلاقة بين الاسلام واللغة العربية قائمة ومتينة واصيلة الى درجة تكاد تجعل الامر بعيدا عن ان يكون موضوع تساؤل ، ومن الواضح ان اللغة العربية قد استفادت من الاسلام مزيتها الكبرى فى البقاء غير متأثرة بما تتأثر به لغات العالم اجمع من تبدل يقطع عبر القرون آخر تراثها عن اوله .

هذا فضلا عن استفادة العربية من الاسلام في جوانب اخرى حضارية واجتماعية وفيلولوجية . فقد استتبع انتشار الاسلام انتشار العربية تلقائيا وادى قيام الحضارة الاسلامية الى استجابة اللغة العربية لسائر اغراض هاته الحضارة فى الثقافة والاجتماع وفقه اللغة .

وقد كان شرع الله الذي انزله قرءانا عربيا وكان حفظ القرءان فى ذاته ولغته وكل ما يتعلق به من قبل الله سبحانه وتعالى بحيث لم تستطع العصور الطويلة والمؤامرات العنيدة والاحداث الجسام ان تنقص منه آية او تزيد فيه رواية ، وكانت الصلاة لا تتم الا بالقرءان العربي ، وهي عماد الدين ، وكان الاسلام داعيا دائما الى الفهم والنظر والادراك ، فقد تأتى من كل ذلك ان يكون لكل مسلم مهما كانت قوميته النصيب الكافي من الثقافة القرءانية وبالتالي من الاطلاع العربي .

لقد اختار الله بحكمه وعلمه الاسلام دينا للانسانية جمعاء ، ومر به فى مراحل من التكامل تتلاءم مع المستويات البشرية المتلاحقة ، فكان يبعث به الانبياء والمرسلين الى اقوامهم وبيئاتهم بالشكل الذي يلائمها، حتى اذا بلغت الانسانية بعلم الله وحكمه مبلغا من طاقة الجدارة المختزنة ، وحازت قسطا من قابلية الاشعاع المبدع ، شاءت ارادة الله ان يتوقف ركب النبوة والرسالات عند محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه جلت قدرته خاتما للانبياء والمرسلين ، واخذ الاسلام منذ ذلك الحين صفة جديدة فاصبحت له علمية خاصة وعالمية ممتدة ، وكان من انسياق النواميس الالاهية وفق مقتضيات هذه العالمية ان تكون للاسلام لغة تمتد بامتداده وتخلد لخلوده وتستوعب حاجاته الحضارية فى سائر مرافق الحياة ، وهكذا جاء التلازم بين خلود الاسلام وخلود اللغة العربية .

وغني عن القول ان احكام الله جل وعلا منزهة عن الاعتباط ، فكما ان الله اعلم حيث يجعل رسالته وانه منزه عن عدم استيعاب الجدارة من كل اطرافها حين يجعل الرسالة هنا او هناك ، فكذلك الشأن في اللغة العربية التي هي لغة هاته الرسالة ، فان اختيارها كذلك منزه عن الاعتباط ، وقائم على اساس متين من جدارتها وقابليتها للنهوض بحق هذه الرسالة الخالدة نهوضا تام الكفاءة ، كامل الاستيعاب .

واما التساؤل عن انه لو لم تكن العربية لغة القرءان ، هل كان الاسلام ينتشر كما انتشر فانه من قبيل الجدل الفلسفي لان الواقع قد قام على غير ذلك على انه مما لا شك فيه ان الله لو اختار للاسلام العالمي لغة غير العربية تكون لغة قرءانه لاختارها بشكل تؤدي فيه مهمتها على النمط الذي ادته العربية لما اختارها لذلك ، فالاسلام هو الاصل والله هو الحكيم العليم القدير الجدير ، فهو اعلم بدينه وبما يحف به هذا الدين .

واننا لنلمس بوضوح وجلاء تلازما فى فترات الازدهار والانحسار الحضاريين بين الاسلام والعربية، كما نجد كل الذين حاولوا او يحاولون النيل من الاسلام او التصدي لحربه ان ينالوا من العربية ويتصدوا لحربها ، والحديث هنا مبسوط الجوانب ، طويل التاريخ ، لا يتسع له استجواب مرتجل كهذا ، ولعلنا نستطيع فى المستقبل ان نكتب فى بعض جوانبه ، فحسبنا الآن ما تقدم ، وشكرا لمكتب تنسيق التعريب ولرجاله المخلصين جهادهم ، والله غالب على أمره .